الفصل الحادى عشر

معنى الانتصار

(ا) ثمن انتصار المسيحية – الكنيسة هى المنتصرة – الانتهاء من تنظيم الأكليروس – نمو الكهنوتية وعلم اللاهوت – الأرثوذكسية والخلافات العقائدية – التيارات التأليفية فى المسائل الأساسية والتأثيرات الشكلية – أثر البسطاء من الناس – الرهبنة ودورها – المراحل الأولى فى التطور المسيحى : المفارقات وعناصر الدوام .

(ب) كيف انتقل أمل المسيحية الأول إلى مستوى جديد – نتائج ذلك – كيف زاد الانتصار من خطر هذه النتائج – كيف يمكن القول إن الانتصار ليس إلا ظاهريًا – مسئولية الكنيسة – الكنيسة تصبح عنصرا من عناصر الدولة الرومانية – وراثتها لهذه الدولة فى القرن الخامس – المزايا المادية التى جنتها والعقبات الفكرية – كيف تغلغلت فى الكنيسة فكرة التمييز بين « المؤمن » وبين « الكامل » ، وكيف أصبحت واقعاً ملموساً – أهمية ذلك من الناحية العملية .

(حـ) انتصار المسيحية من وجهة نظر تاريخ الأديان – الغرب أمام المسيحية الأولى – كيف تمثل هذه المسيحية نوعاً من التأليف الذى نشأ من تطلعات الشرق الدينية – منافسو المسيحية : مبشراً ، الأفلاطونية الجديدة ، المانوية .

(د) الأديان الثلاث التى تقابلت فى القرن الرابع – أوجه التشابه بينها – ضعف الأفلاطونية الجديدة من الناحية العملية – مركز المانوية وثباتها النسبى – لماذا حرت الدولة الرومانية المانوية – كيف استطاعت الكنيسة أن تواجهها وتنتصر عليها – استمرار وجود الأفلاطونية الجديدة والمانوية بعد انتصار المسيحية – أثرهما فى المستقبل .

(١)

كان هذا الانتصار ، الذى يشهد به على الأخص تحول الدولة الرومانية إلى الدين الجديد فى القرن الرابع ، مرحلة هامة من مراحل تطور المسيحية . والواقع أن المسيحيين كانوا قد دفعوا ثمن الانتصار ؛ دفعوه غالياً ، بحيث نستطيع القول فى شىء كثير من الجزم ، بأن مؤمنى عصر الحواريين لم يكونوا لينظروا إلى هذا الانتصار ، لـو قدر لهم ذلك ، إلا على أنه نكبة كبرى . وعذر مسيحيى عهد قسطنطين أنه لم يكن بيدهم اختيار الظروف والشروط .

والنظرة الأولى إلى أحوال المسيحية تكفى لأن تبين لنا أن الانتصار على عداء الدولة ودفعها إلى اتجاه جديد ، لم يكـونا من نصيب أتباع المسيح حقيقة وإنما كان من نصيب حكامهم ، أى الكنيسة . وأن تلك الامتيازات التى تمتع بها المؤمنون عامة على أعقاب الحل الوسط الذى اتخذه قسطنطين ، لم تأتهم سوى نتيجة لاتفاق بين قوتين ، بل بين حكومتين ، تبحث كل منهما أولا وقبل كل شىء عن مصلحتها الخاصة .

وانتهى الأكليروس ، وقد اطمأن للمستقبل ، من إنشاء تنظيماته خلال القرن الرابع . وكان لإقامة الأساقفة المركزيين والبطاركة أثراً ملموساً فى تنسيق التدرج الوظيفى بالكنيسة التى اتجهت بذلك شيئاً فشيئاً نحو الملكية البابوية . كما كان لعقد المجالس والمؤتمرات الكنسيـة المتعددة أثره فى تدعيم وتوضيح مفهوم « الكاثوليكية » [1] للإيمان لدى هذا الأكليروس ، وسمح له فى نفس الوقت

---

(١) بمعنى « العالمية »

بتوحيد نظمه وتوسيع أبعاد عقائده أكثر فأكثر. وسارت تلك الهيئة المسيحية الكبرى بدفعة هائلة من النشاط، فبدت وكأنها تجذب إليها لتستوعب كل ما احتفظ به العالم الوثنى من جوهر حى؛ وحتى الطقوس والمراسم، التى اتشح بها الأكليروس وازدان، نراها تتضخم وتزداد بريقاً، فهى قد تبنت كل زخارف العبادات القديمة التى لا تتنافى تمام المنافاة مع مبادئ الإيمان الأساسية.

ومن زاوية أخرى، نلحظ أن الكنيسة المسيحية – وهى الممثلة للشعب المسيحى كله بالنسبة إلى الدولة – تميل إلى تشكيل تنظيماتها الإدارية على غرار تنظيمات الدولة نفسها، وإلى اتخاذ الإطارات الرسمية حدوداً لها، بل نلحظ أنها توشك أن تكون واحداً من الفرعين الأساسيين للإدارة العامة، مع حفظ حرياتها وامتيازاتها المكتسبة التى تستطيع الدفاع عنها عندما تقتضى الضرورة ذلك. وتنمو روح الحكم فيها كما تنمو الأجهزة الإدارية، تحت تأثير الطمع، الذى لم يكن منه بد، فى الوظائف من كل جنس، وكرد فعل لما حققته من مكاسب فى صفوف الأرستقراطية؛ وبذلك نزعت إلى الانفصال يوماً بعد يوم عن جمهور المؤمنين البسطاء، وإلى التدخل المتزايد فى التدبيرات السياسية. إلا أنها باتخاذها هذه الوجهة، لم تفقد استقلالها فحسب، بل تشربت شيئاً فشيئاً بمشاغل الحياة الدنيا، حتى أبهمت عليها فى بعض الأحيان مفاهيم رسالتها وأسباب وجودها.

وإن الشىء الذى يثير بادئ ذى بدء انتباه أى باحث فى مجال انتصار المسيحية، هو أولا: قوة الوظائف القدسية وسيطرتها، إذ يتبين له أن حياة كنيسة المسيح جميعها قد انطوت عليها ضمائر الأساقفة، ثم هو، ثانياً: نمو علم اللاهوت نمواً هائلا. ولقد ظل الفكر اليونانى خميرة لكل نظريات هذا العلم،

يؤثر تأثيراً قويًّا على الإيمان ، كما أثرت روح العصر على العادات والتقاليد وكما أثرت الدولة على الكنيسة . فالمسيحيون ينهلون من ذلك النبع الدافق للأفكار الميتافيزيقية سواء بطريقة مباشرة : فى كتيب فلاسفة الأفلاطونية الجديدة الذين يتتبعون خطاهم وإن أظهروا لهم الاحتقار ؛ أو غير مباشرة : فى كتيب أوريجين الذى أعجب به البعض على حين لعنه الآخرون والذى استغله أعداؤه المنقفون مثلما استغله أنصاره . فالقرنين الرابع والخامس حافلين إذن بوقائع أعجب نزاع بين العقائد التصاعدية التى راحت تتقاطع أو تهدم بعضها البعض أو تلتقى فى تآلف ، بينما ذهب تفكير مجموعة من كبار العلماء ، وسط هذه المعمعة الحامية الوطيس ، إلى محاولة إرشاد المترددين والجهال . نجد الصراع مثلا يدور حول مشكلة تحديد العلاقة الطبيعية بين الابن والاب فى نطاق الثالوث ، أو مشكلة الصورة التى بها تنسجم الخصائص الإلهية مع الخصائص البشرية فى شخصية المسيح التى انطوت على كلتيهما ، أو مشكلة أحقية مريم العذراء فى لقب « أم الله » . وكانت الأرثوذوكسية ، فى الواقع ، هى ذلك الرأى الذى تجمع عليه الأغلبية من أعضاء المؤتمرات الكنسية . غير أن هذه الأغلبية لم يكن لها فى أكثر الأحيان من القوة ما تستطيع به أن تفرض حلا سريعاً حاسماً على سائر الكنائس ؛ ولم تكن قراراتها عادة لتثبت إلا بعد ألوان مختلفة من القلق ، يجد لها بسطاء الناس أصداء خبيثة فى أنفسهم وهم الذين يؤمنون – كما نعلم – بأن الحقيقة واحدة وخالدة ، أى ، بالتالى : ثابتة لا تتغير .

والجديد فى هذه الخلافات العقائدية ، التى ثارت القرنين الخامس والسادس ، لم يكن الاختلاف فى حد ذاته ولا أصالة الموضوعات التى طرحت للبحث . فالاختلاف كان ، خلال القرون الثلاث الأولى ، شرط تقدم الإيمان

وغذائه ، كما كانت الكثير من المسائل التى أشرنا إليها مادة للبحث منذ زمن بعيد . إن الجديد فى الأمر ليس هذا ، وإنما هو : اتساع أبعاد الصراع وعنفه ودوامه . فالمنطق كان يعرض المشاكل المتوالية التى تنبع كل واحدة منها عن الأخرى . والواقع أن تلك المرحلة التى نعرض لها كانت مرحلة حتمية فى تطور العقيدة المسيحية التى لم يوفهاالقرن الثالث حقها من البحث ، فلم تكتف بها حياة الإيمان السائرة بطبعها إلى الأمام قدماً . وكان لابد من الاختبار فى مجالات متعددة بين نزاعات متباينة لم تتحدد بعد كل التحديد ، بل هى مختلفة كل الاختلاف . وكلما حاول القوم فحص معالمها وتحديدها ، ثارت النزاعات . وكلما ازدات أهمية الموضوع ، حمى وطيس الخلاف وبلغ من العنف مبلغه . وعلى أى حال فقد كان الأمل فى الوصول إلى الوفاق يبعد يوماً بعد يوم بتراكم التعقيدات فى مجال النظريات العقائدية . ولم يكن شيئاً غريباً على الناس أن يفقد المتنافسون كل اتزان فى العمل والحديث : وإنها لصورة غريبة حقًّا تلك التى نلمحها من خلال دراستنا لتطورات الخلافات الخاصة بـ « الأريانية » أو بـ « المونوفيزية » . وإن رجالا من أمثال أوزيبيوس النيكوميدى ، أو الإمبراطور قنسطانس المسيحى ، أو أساقفة الإسكندرية الثلاث الذين امتازوا بالعنف الشديد : تيوفيل وكيريللوس وديوسكور ؛ هؤلاء الرجال لا تبعث سيرهم على الإيمان بأنهم ارتبطوا ارتباطاً وثيقاً بوصية الإنجيل الكبرى التى رأى فيها عيسى – على حد ما يروى – كل « شريعة المسيحية » ، وبالتالى – على ما نعتقد – كل لاهوتها ؛ وتلك الوصية هى : أن يحب المرء قبل كل شىء إلهه وأخيه .

ولكأن الكنيسة فى هذا العصر راحت تستخدم فى النيل من نفسها بنفسها كل القوى التى لم تعد الاضطهادات تجبرها على استخدامها لتأمين حياتها . . .

ولكنها كانت فى الواقع تمر بأزمة نمو ، سوف تنبثق منها الأرثوذكسية فى النهاية ، تلك الأرثوذكسية التى دعمت انتصار الجماعة على الفرد وشرعت باسم الله التعصب اللازم لذلك . وإن علم اللاهوت ، وهو الذى اختص بالمعانى البالغة الغموض وبأساليب التوفيق ، ليتغذى من كل هذا الجدل فيتخذ فى رحاب الكنيسة مكانة هادئة ، ويدفع الدين إلى أن يصبح اختصاص علمائه ويفرض ذلك بقوة ، فتضعف العاطفة الدينية ؛ وتصبح الإنشاءات الفردية بالبدعة والضلال . ومنذ ذلك الحين هيمنت النظريات المدرسية على الإيمان . وإن هذا لأمر أساسى فى تاريخ الحياة المسيحية .

وعلينا بعد ذلك أن نذكر مسألة هامة ، وهى : أن المناقشات العقائدية الكبرى التى ثارت خلال هذين القرنين وعكرت صفوهما ، قد نمت جميعاً فى الشرق . أما الغرب فلم يفهم لها مغزى ؛ ولم يهتم بها أو يأخذ نصيبه منها إلا عندما بدت وكأنها تهدد الوحدة الكاثوليكية أو تضرب « سنة الحواريين » . ولم يلتفت الناس فى غرب الإمبراطورية إلا لمشاكل عملية ، مثل : ماهية تكوين الطبيعة الأخلاقية للإنسان والنتاج المأمول منها ؛ وماهية الإثم ووسيلة الخلاص منه ؛ وماهية العون المأمول من الفضل الإلهى ومدى ضرورته لنجاة الإنسان ؟ وهل الإنسان حر فى إرادته أو هو خلق ليريد ما أراده الله ؟ . . . وقد نبعت البدعتان اللتان أطلق عليهما « البريسيليانية » (فى القرن الرابع) ، و « البلاجيانية » (فى القرن الخامس) ، من هذه التساؤلات التى اختصت بالجانب الأخلاقى أكثر منها بالجانب اللاهوتى .

ومع ذلك فقد راحت فكرة الكاثوليكية تفرض نفسها فى وضوح يزداد يوما بعد يوم ؛ وذهبت إلى تدعيم القول إنه لا يوجد هناك سوى « إيمان واحد » ،

تماماً كما لا توجد سوى كنسية واحدة . وبالتوازى مع ذلك تأكدت أكثر فأكثر الفكرة القائلة إنه لا نجاة للإنسان خارج هذه الكنيسة ، وأن عليه أن يأتيها لا مستسلماً خاضعاً خضوع الابن المختار ، ومؤتمراً بتوجيهات سلطاتها الرشيدة فحسب ، بل أيضاً وهو مقتنع بعقيدتها اقتناعاً داخليًا كاملا . ومن الواضح أن تلك العقيدة التى سارت فى طريق التقنين والتحديد شيئاً فشيئاً فى تردد وقلق وبين الخلافات العنيفة ، من الواضح أنها لم تزل فى طور عملية التأليف اللاهوتى ، أى : تطعيم معطيات إيمان الحواريين بمفاهيم دينية وفلسفية مختلفة الأسس استعيرت من البيئات المتباينة التى عاشت فيها المسيحية ؛ ثم : محاولة التوفيق بين أطراف النظريات بواسطة مجموعة من البراهين قريبة من براهين السفسطائية الإغريقية ، تكسى بعبارات تتفاوت درجة البراعة فيها وإن كان غالبها ، فى حقيقة الأمر ، لا يغنى ولا يشفى غليلا . وإن تلك لهى الظاهرة التى يتمثل فيها بوضوح تأثير طبقات أرستقراطية الفكر من مثقفين وفلاسفة ، التى دخلت المسيحية ، فلم تتخل إذ دخلتها – كما سبق أن أوضحنا ذلك – عن جوهر بل وعن أساليب وأشكال التفكير الذى درج عليه أصحابها حتى تحولهم هذا . ولقد حاول الدارسون فى السنين الأخيرة من عصرنا ، ووفقوا كل التوفيق فى محاولتهم ، أن يبينوا كيف كان كبار المؤلفين المسيحيين من اليونانيين ، خلال القرن الرابع ، يفكرون ويبرهنون ويتحدثون ويكتبون حسب قواعد وطرق وعادات البلاغة الوثنية ، التى كانت تلقن فى مدارس العالم اليونانى . بل إنه لمن العجب العجاب أن نتبين من خلال الدراسات الحديثة كيف كان هؤلاء المؤلفون يخضعون خضوعاً مطلقاً لنفس القشور الزائفة التى صرحوا فى كل مناسبة باحتقارهم وإنكارهم لها : فالمادة التى استغلوها فى سبيل تطويع المسيحية

لمتطلباتهم الفكرية لا تختلف فى أصلها عن الشكل الذى عبروا عنها والذى لم يستطيعوا التخلص منه ؛ فكلاهما ، أى الشكل والمادة ، يرجع أساساً إلى المدارس الفلسفية التى تعودوها من قبل .

غير أن تحقيق الأمر إلى أن جمهور المؤمنين البسطاء وإن خضعوا ظاهريًّا لرجال الإكليروس لديهم وأبدوا استعدادهم ليتلقوا عنهم قواعد الإيمان . لم يكونوا فى الواقع على تلك الدرجة من السلبية التى طفت بهم . بل إن الأمر أخطر من ذلك : ففى الحياة الدينية لهؤلاء المؤمنين البسطاء يجب البحث عن أغلب التطورات التى مرت بها المسيحية . لقد كانوا رجالا لا يميلون إلى اعمال الفكر والمنطق ؛ ولا يبالون بألوان التعارض بل بالخرافات التى تقابلهم ؛ رجالا أخذت الإحساسات والعواطف منهم كل مأخذ ، فنزع إيمانهم الفطرى الدافق فى قوة لا تقهر ، إلى طلب الإضافات والإعلاء ، وإلى التهويل فى تصوير الموضوعات وتنميتها من حيث الكم . ولم يكونوا يقدرون على الخلاص من إيحاءات الوسط الذى يعيشون فيه ، ولا على التخلى فى حياتهم عن تراثهم العتيق . ولما كانت سائر أوجه معيشتهم لا تزال مشبعة بالوثنية ، فقد طلبوا الإضافات والإعلاء من الوثنية ، ومن تقاليد الأجداد ، ومن الطقوس القديمة البالغة القدم حتى لكأنها جزء لا يتجزأ من مجتمعهم ، ومن المعتقدات والخرافات التى لازمتهم فى كل زمان فلم يعودوا يميزون بينها وبين تفكيرهم الدينى الخاص ، وإرادات مذاهبهم التأليفية فى آن واحد : أن يكون عيسى هو الله وأن يظل الله واحداً ؛ ونشأت عنها الأساطير التى جعلت من مولد المسيح وحياته أكثر المعجزات إعجازاً ؛ ثم هى قد أقامت بعبادتها لمريم العذراء حقيقة جديدة مكنتها من الإيمان إلى جانب عبادات القديسين ، فأصبح الأمر أشبه شىء

بالدين المتعدد الآلهة ، تغذيه أساطير الوثنية فى كثير من الأحوال . ولم يكتفوا بذلك فى تأليفهم ، بل آمنوا فى سذاجتهم بأنه لا يجب البخل بشىء فى سبيل تجميل صورة الله ، فرغبوا فى أن يستعيدوا روعة الاحتفالات .

أما إن وجد علماء اللاهوت أنفسهم فى مأزق من جراء ذلك الحمام الوثنية بين رحاب « بيت السيد » ؛ رجعوا إلى كل سَحر « الأسرار » ، بل إلى سحر « الأورفيه » ، مطمئنين ، كدأبهم لفاعلية الحركات والعبارات السرية التقليدية .

الإيمانى لدى الشعب ، فهذا من شأنهم ؛ ومهمتهم هى الخروج من أمثال تلك المآزق ، وبالكشف ضرورة عن الحلول الوسط أو سبل الوفاق اللازمة لتطويع المعتقدات وتطويرها فى الاتجاه المناسب .

وعلى أى حال ، فإن إيمان العامة قد وجد منذ القرن الخامس وسائل للتعبير بلغت الغاية من الفعالية ؛ ذلك أن الرهبان تكاثروا خلال هذا القرن وانتشروا بالبلاد ، ولم يكونوا جميعاً بطبيعة الحال من أبناء الشعب ، بل نرى الأديرة تجذب إليها عدداً وفيراً من النفوس الرقيقة التى راعت الحياة الدنيا أو مزقت عواطفها ، وتغرى الكثير من طلائع المسيحيين المثقفين الذين أدركوا – فى وضوح تتفاوت درجاته – أن الأخلاق الإنجيلية التى يحملونها بين جوانحهم لا تتفق تماما مع مقتضيات الحياة على هذه الأرض ، وأن المسيحية التى اكتفى بها السنام عامة ليست هى مسيحية عيسى . غير أن أولئك وهؤلاء لم يكونوا سوى أقلية قليلة بين صفوف جيش الرهبان العرمرم ؛ وكانت تقواهم الملتهبة ، من ناحية أخرى ، ترحب ترحيباً تلقائيًّا – وهى الباحثة دائماً عن وسائل تجنب الخطيئة – بالإضافات المترتبة على إيمان البسطاء ، تلك الإضافات التى يجدون فيها السلوى والنشاط المتجدد ، بل أحياناً : التأييد والتشجيع

والعاطفة المكملة لتطلعاتهم . فكان القديس جيروم مثلا ، وقد أضنته ثورات جسده فراح يبحث عن وسيلة للانتصار عليها بتعذيب نفسه وبالتقشف ثم بالتأمل فى سر عذرية مريم ، كان هذا القديس لا يكتفى بقبول فكرة العذرية على الصورة المطلقة التى لقنها إياه إيمان العامة فى تأكيده بأنها صفة ملازمة على الدوام لأم عيسى ، لم يكتف بهذا ، بل فرض بالتوازى عذرية يوسف المطلقة .

كانت جمهرة الرهبان الغالبة تأتى من أبناء الشعب . وكانوا ، بين جدران أديرتهم ، يجمعون فى رصيد واحد عواطفهم الدينية المشتركة ، ويستثمرونها فى نشاط بالغ . وكانوا يتمتعون بنفوذ قوى بفضل تجنبهم لكل ملذات الحياة ، ويمتازون بحيوية عنيدة بل عنيفة ، فى المواقف العقائدية التى يتخذونها . واتصف أغلب ذوى الشهرة منهم بسمو أخلاقى حقيقى فاض فضله على الجميع لأن قانونهم كان يسوى بين الجميع . وقد أدى كل ذلك إلى تدعيم سلطتهم لدى عامة المؤمنين ، واضطر حكام الكنيسة – برغم ما وجدوا – إلى أن يحسبوا لهم أكبر حساب : فإليهم كانت تنتهى رغبات وإيحاءات الإيمان الشعبى ، وبهم كانت هذه الرغبات والإيحاءات تتخذ سبيل الوضوح والتحدد والانتظام ، لتفرض نفسها أخيراً على علماء اللاهوت ، الذين لم يكن لهم بد من تقبلها ومن التوفيق قدر الاستطاعة ، بينها وبين المسيحية .

وهكذا ، وبفضل التعاون اللاشعورى بين تأثيرات تختلف فى أصلها ولكنها تنشط لتلتقى فى بؤرة واحدة ، نشأ فى القرن الرابع دين لا يشبه فى الكثير من نواحيه ذلك الذى لمحناه على أعتاب القرن الثالث . وسيطر هذا الدين الجديد ، فى الواقع ، على العالم الرومانى عند بدء القرن الخامس .

(ولنتأمل قليلا فى أمر مسيحية القرون الوسطى :

كانت ديناً يبغى العالمية ويتخذ الحرب وسيلة لها ؛ ديناً متعصباً ، شديد التعصب ، لا يقبل – بالنسبة إلى العالم الخارجى – أنصاف الحلول ، ويخشاه اليهود خاصة .

وكانت ملتقى لعدد عديد من العقائد التى لا يستسيغها المنطق ، ومن الطقوس الدقيقة المتشعبة التى حملت قدراً وافراً من رموز السرية والفعالية) .

كما تداخلت فيها طوائف لا تحصى من « العبادات » الخاصة التى اتجهت إلى صور من « السيدة العذراء » متعددة ومتميزة الألوان ، وإلى قديسين محليين متخصصين لا يكاد المرء يلم بقوائم أسمائهم .

كل ذلك فى إطار إكليروس يهيمن على إيمان وضمائر الناس ، ويعتمد على تدرج وظيفى متصل اتصالا وثيقاً فى سلسلته ، وينزع إلى تلقى أوامره كلها من مركز موحد ، يدفعه من القاعدة جيش هائل من الرهبان ، وينسق بين صفوفه بعد ذلك جيش آخر من علماء اللاهوت الذين لا ينتهى لهم حديث ولا يصل إنسان إلى سبر أغوار فكرهم .

إننا ، عندما نتأمل مسيحية القرون الوسطى هذه ، فى الكنائس الفاخرة التى اتخذتها مقرًّا والتى تعددت وتكاثرت بصورة هائلة ، وفى الاحتفالات الفخمة التى تقام لها والتى نمت وتضخمت بطقوسها ورموزها المحركة . . .

المسيحية فى القرون الوسطى ؛ عندما نتأملها ، ثم نقارن حالها بدين نبى إقليم الجليل ، ذلك النبى المتواضع ، الرقيق الخلق ، الذى زعم أن رسالته هى فقط تبشير إخوته فى الله بالنبأ الطيب ، نبأ حلول مملكة الله ، وحثهم على إعداد العدة لها بمكارم الأخلاق ، دين عيسى الذى تسامت تقواه إلى إله أجداده فى تطلع بنوى مطمئن . . .

. . . لا نجد رابطة تذكر بين هذا وذاك ! . . .

فباسم المسيح ، يبدو أن حياة الوثنية كلها ، سواء فى ميدان الفلسفة أو الدين ، وبكل ما انطوت عليه من تناقضات وفوضى ، قد دبت فيها الحياة من جديد فنشطت وانتصرت على دين الروح والحق الذى بشر به وعاشه الأستاذ اليهودى) .

ولكنه ، مهما بدا من فروق بين مسيحية رجال من أمثال القديس توماس الإكوينى وبطرس الراهب وبين مسيحية عيسى وبطرس الحوارى ، فإننا نجد الخطين من المسيحية يرتبطان على مر العصور برابطة قد تكون خافية أحياناً على العيان ، إلا إنها قائمة متينة على الدوام ؛ وتلك هى : مقتضيات الحياة والبقاء التى حددت وفرضت التطور ، ذلك التطور الذى كان قيام عيسى بالدعوة نقطة البدء فيه . وليست عقيدة توماس الإكوينى أو أفكار الصليبيين ، أو نظريات القديس أغوسطين فى علم اللاهوت ، أو غنوصية أو ريجين ، أو إنجيل القديس بولس ، سوى مراحل معينة .

(مع ذلك فالحقيقة الثابتة التى لا جدال فيها ، هى : أن الكنيسة لم تتمكن من « الانتصار » خلال القرن الرابع إلا بفضل انهزام الإيمان الأول الذى يمكن أن نسميه بـ « إيمان الاثنى عشر ») .

(ب)

كان من سوء حظ المسيحية أنها اعتمدت أساساً فى البدء على الأمل الكبير المتعلق بـ « ظهور » المسيح . فمن اليسير على الإنسان أن يرسم لنفسه مخطط حياة بديع لا يرقى إليه الشك ولا الخطيئة ، أن أيقن بزوال كل حياة بشرية بين لحظة

وأخرى ، ويقرب جنيه للثمار جهده الذى لن يطل ، تلك الثمار التى سوف يتمتع بها فى عالم الخلود . غير أن الأمل الكبير لم يتحقق ، وأدى التأجيل فيه يوماً بعد يوم وعاماً بعد عام إلى استسلام عامة المسيحيين – مثلهم فى ذلك مثل سائر الناس – لكل إغراءات غرائزهم ولدفعة العادات المتأصلة فيهم . إنهم لم يتنكروا لمثل الحياة التى لولاها لما كان لدينهم مغزى ولكنهم لم يعودوا يحاولون تحقيق هذه المثل عملا ؛ وحل لديهم « الاعتقاد » فى بعض الفروض والإيمان بالفعالية السحرية للطقوس محل الاجتهاد الشخصى الذى طالب به الإنجيل . وقد بدأ هذا الانحراف قبل القرن الرابع ، إذ نلمح بعض ظواهره خلال الفترات السابقة لانتصار المسيحية ، ولكنه تأكد بتأكد هذا الانتصار . والسبب فى ذلك بسيط ، وهو : تزايد عدد الأتباع الجدد الذين دخلوا الكنيسة دون أن يعدوا لذلك الإعداد الكافى ، فلم تكن لهم المناعة اللازمة أمام قوى الحياة ، تلك القوى التى تؤثر تأثيراً هداماً فى سائر الأديان .

وتلاشى بعد ذلك الخوف من الاضطهادات ، وأصبح المسيحيون يستطيعون أن يعيشوا حياة طبيعية ، فاكتمل فى نفوسهم الانفصال بين واجباتهم كمؤمنين وبين احتياجاتهم كبشر عاديين . وانحصرت الواجبات فى مجموعة من الفروض تنزع إلى الانكماش عدداً وأعباء[1] ، على حين أخذت متطلبات الحياة فى الازدياد ، دون ما قيد حقيق ، فى الصور التى اعتادها الإنسان ضمن المجتمع . وبعبارة أخرى : (انهزمت المسيحية الأولى فى الصراع الروحى الذى خاضته مع الحياة ؛ وقبلت الكنيسة ، فى الواقع ، هذا الانهزام واعتمدته ،

---

(١) هكذا مثلا نرى أن الصلوات التى تقيمها الكنيسة أصبحت تختصر شيئاً فشيئاً ، كما اعتاد المؤمنون ألا يشاركوا فيها إلا أيام الأحد .

مكتفية بأن تحول إلى موضوع للتأمل الدينى لدى المؤمنين تلك المثل التى كانت تنطوى فى البداية على جوهر الإيمان ، والتى كانت هى علة الإيمان الأولى) .

واتخذت الحياة اليونانية – الرومانية كلها ثوباً من المسيحية ، ولازمت هذا الدين ، الذى يتعارض معها ، دون أن يضيرها ذلك فى شىء . والنتيجة الكبرى الواضحة لكل ما تقدم ، والتى نلحظها على أعتاب القرن الخامس ، هى إذن : أن انتصار المسيحية ، فى سائر وجوهه ، لم يكن إلا انتصاراً ظاهريًّا ؛ حيث إن الدين الجديد لم يطوع العالم اليونانى – الرومانى لعقيدته وروحه ، بل على العكس من ذلك نرى هذا العالم قد تشربه وطوعه لتطلعاته الأصيلة ولتقاليده فى جميع المجالات الفكرية والمادية ، والكنيسة هى المسئولة عن تلك النتيجة ، لأنها هى التى كانت القوة المتحكمة فى أمور المسيحية والممثلة الوحيدة للمسيحيين ، وهى التى وافقت ، بوصفها هذا ، على الحلول الوسط على ألوان مختلفة من التنازلات ، ثم هى التى « انتصرت » فى تلك الظروف ، لا المسيحية .

وأصبحت الكنيسة جانباً من جوانب الدولة الرومانية ، فقد أخذت عنها الإطارات والمفاهيم الإدارية ، وحب التنظيم والتنسيق ، ثم الخوف من الفردية الابتكارية التى تخرج عن الحدود المتعارف عليها والتى تثير وتقلق عقول السذج البسطاء وتناقض فى حيويتها الدافقة ما دأب عليه المجتمع من تقاليد معتمدة . أما مثل الحياة الأولى فلم تحظ من التقدير إلا بقسط إذ اتخذت موضوعاً مختاراً لأحاديث الوعظ الكنيسة ، ولم يعد لها تأثير حقيق عميق فى تسيير هذه « المسيحية الخارجية الاسمية » (على حد تعبير تولستوى) التى ارتضتها الكنيسة شيئاً فشيئاً بالنسبة إلى عامة الأتباع .

وانهار النفوذ الإمبراطورى الرومانى فى الغرب خلال القرن الخامس ، وبدا أول الأمر أن الكنيسة قد قويت بذلك ونما سلطانها ، ولكأنها أصبحت وريثة الإمبراطورية فى الميدان السياسى بعد أن ورثتها فيما مضى فى الميدان الأخلاقى والدينى . فلقد ظلت – بين ربوع العالم الرومانى الذى اكتسحته جحافل « البربر » – المعقل الوحيد لمبدأ الوحدة والمركزية الرومانى ؛ بل لم تلبث أن أرادت لنفسها إدارة ملكية حقيقية . وكانت قوة الضمانات التى تمنحها لرعاياها من أمن وحماية فى هذا العصر المضطرب وسيلة ممتازة للدعاية لها ساعدت كثيراً على نمو « كاثوليكيتها » . إلا أن هذا النفوذ الجديد الذى اكتسبته فى المجال السياسى سوف يؤدى إلى تعلقها أكثر فأكثر بأمور « الحياة الدنيا » وإلى ابتعادها عن « المثل » الأولى . ولن تفيد عقيدتها ولا أخلاقها الاجتماعية – على الأخص – من ذلك شيئاً ؛ بل سوف تنشأ فيها فكرة « الإصلاح » المحتوم ، تلك الفكرة التى عكرت صفو عيشها خلال القرون المتوالية .

إلا أن ظرفاً خاصًّا قد يسر كثيراً من انهزام الكنيسة الفعلى أمام متطلبات حياة العصر . وقد أوضحنا أهمية هذا الظرف فيما سبق من زاوية معينة ؛ ونعود إليه هنا لنبحثه من جانب آخر . ذلك هو : أن رجالا قاموا فى سائر العصور ، داخل الكنيسة أو بمعزل عنها ، ينادون بأن المسيحية ليست فقط مثلا أعلى لا يستطيع الإنسان أن يرقى إليه ، ويحاولون بروح وثابة أن يحققوا هذا المثل لأنفسهم ، ويعارضون فى عنف عنيف كل لون من ألوان التنكر للشريعة السماوية ؛ ويهاجمون كل تراجع أمام قوى الحياة الدنيا . كان ذلك مثلا موقف ترتوليان وكوموديان ؛ وكذلك موقف فرقة « المونتانيين » ، وفرقة « النوفاسيين » ، وإن لم تبلغ هذه الأخيرة نهاية الشوط فى هذا الاتجاه ولم

تتلاش تلك الروح فى القرن الرابع ، بل كان من منطق ازدياد الداء أن يزداد الحماس فى البحث عن علاجه . وذلك ما حدث بالفعل .

فقد مرت كل الحياة المسيحية ، بل كل الحياة الدينية ، خلال القرن الرابع ، بتيارات عميقة من الزهد المتشدد . وإنا لا نملك ، لأول وهلة ، إلا التعجب لضعف تأثير هذه التيارات على اتجاه الكنيسة الذى عرضناه . والسبب فى ذلك يرجع إلى نشأة الرهبنة المنظمة ، وفتح أبواب الأديرة واسعة لترحب بكل مسيحى يرفض التراجع عن مثله أمام متطلبات الدنيا ، ويبحث عن الوسيلة التى تمكنه من تسيير حياته – عملا وفكراً – حسب الأخلاق المسيحية الأصيلة .

وكانت هناك طوائف من الزهاد يعيشون بين رحاب المجتمع ويشتهرون فيه بتقشفهم . وكانوا محل إعجاب البسطاء من الناس ولكنهم لم يؤثروا عليهم تأثيراً ذا بال ، ذلك أن سلطات الكنيسة ، بالأخص ، كانت تسهر على نشاطهم وتراقبه خشية أن يخرج بهم عن حدودهم ، وكانت بذلك تحول بينهم وبين هدم مقومات الحياة التى تعارف عليها الناس ، وتنهاهم خاصة عن الدعوة إلى عدم الزواج أو مهاجمة ألوان الطعام المعتادة . فقد كانوا يثورون عامة أكثر ما يثورون على الملذات الحسية ، سواء منها معاشرة النساء أم تناول اللحوم والخمور . وقام فى القرن الرابع أسقف أسبانى يدعى برسيليان ، يريد أن يصلح من أحوال المؤمنين متجهاً إلى الأخلاق المسيحية القديمة ، فاعتبره أغلب أساقفة من بنى وطنه شخصاً خطراً على المجتمع ؛ وشكوا فى أمره واتهموه بالمانوية ، حيث كانت تلك الديانة ذات الأصل الفارسى تدعو إلى الزهد المتشدد ؛ واستطاعوا أن يدفعوا بالسلطات الحاكمة إلى القضاء عليه . وفى بلاد الجول ، قام أسقف

آخر بمدينة تور ، هو القديس مارتين ، يدعو إلى الزهد ويعمل به فى عنف شديد على نفسه ، فرأى فيه إخوانه من الأساقفة « قدوة ضارة بالناس » وعزلوه عنهم سنين طويلة من حياته ، وإن لم يستطيعوا ، بعد موته ، أن يقضوا على التقدير الذى احتفظ به المسيحيون له والذى تحول إلى تقديس وعبادة .

وكانت الكنيسة ، كلما ازدادت وفود النفوس القلقة الحائرة التى تشكل خطراً عليها ، تفتح أمامها « صمام أمان » تمثل فى الأديرة . ونعنى بذلك : أنها كانت تشير على المؤمنين الذين يعارضونها بسعيهم الدائم إلى المثل الأعلى ، كانت تشير عليهم بتلك الوسيلة لتحقيقه ، أى بالخروج من الحياة الحقيقية دون عناء . ولا نقول هنا بأنها كانت تعمل مع سبق الإصرار على القضاء عليهم وتطهير المجتمع منهم حتى لا يضروا بمصالحها الدنيوية ؛ حيث لم يكن عليها فى أكثر الأحوال إلا أن تتركهم وشأنهم ، فيسيرون فى الطريق الذى يرضيها ، بل نراها منذ القرن الرابع ، تذهب أحياناً إلى حد معارضة مثل تلك الاتجاهات عندما تشك فى حقيقة ميول أصحابها .

وهكذا انقسم المسيحيون طائفتين ، بواسطة نوع من التمييز بين « المؤمن » وبين « المؤمن الكامل » ذلك التمييز الذى نلحظ أثره فى البوذية وفى المانوية . والعقيدة واحدة بالنسبة إلى الجميع ؛ إلا أنه أصبح أمراً معتمداً أن التطبيق المحدود لأحكامها العملية يكفل « نجاة » المسيحى ، ويتناسب مع قدرة الجمهرة الغالبة من الناس . أما التطبيق الكامل لها ، فهو يقتصر على طائفة من الخاصة تنوب فضائلها العميقة – حسب الرأى السائد – عن ضعف الأخوة من العامة . وعلى أى حال ، فقد هيئت لهؤلاء العامة وسيلة فعالة يستطيعون بها « تعويض » نقصهم الخاص ؛ وتلك هى : التراحم فى صورة الصدقة أو الوقف الخيرى ،

وعمل الخير على أى وجه من وجوهه . وقيل بحق : « المسيحى بمعنى الكلمة هو الراهب » . وبفضل الراهب أيضاً استطاعت المسيحية أن تجد سبيلا إلى التعايش مع الحياة الدنيا ، دون أن تنهار قواها انهياراً سريعاً ودون أن يغمرها رد الفعل المحتوم للتقاليد الدينية الوثنية القديمة ، تلك التقاليد التى ظلت قائمة لفترة طويلة برغم تلاشى المعتقدات المفسرة لها .

(جـ)

هذا هو إذن المظهر المسيحى للانتصار . أما إن نظرنا إليه من زاوية تاريخ الأديان فإننا نجد له مظهرًا آخر مختلفًا .

وعلينا ألا ننسى ، قبل كل شىء أن المسيحية الأولى كانت فى جوهرها ديانة شرقية ؛ كانت تركيباً ساهمت فيه اليهودية بالأسس ، ثم جاءت عناصر البناء الأخرى من العالم الهيلينستى الذى تآلفت فيه التأثيرات اليونانية مع التأثيرات الشرقية الخاصة – من آسيا الصغرى ، وسوريا وما بين النهرين وإيران ، ومصر – منذ عهد انتصارات الإسكندر . ووجد الغرب نفسه أرضاً ممهدة للفتح المسيحى بفضل ماكان منتشراً فيه من عبادات شرقية كثيرة متعلقة بآلهة « الخلاص » : مثل عبادة إيزيس أو عبادة الأم الكبرى الفريجية أو عبادة ميثرا ، وغير ذلك من الآلهة الذين صاحبوا قوافل التجارة وسفنها أو تنقلوا مع فرق الجند فى البلاد المختلفة . غير أن الغرب لم يكن له شأن فى تطور واكتمال الديانة الجديدة ؛ بل هو تناولها من محيطها الخارجى ، ولم يؤثر فيها عند أخذه بها إلا بأن زاد من صلابتها ومن تعصبها .

فقد كان قاصراً عن أن يدرك معارج التفكير اليونانى – منبع علم اللاهوت

الأول – فى سيولته وانسيابه الفائقين ، ولا أن يعبر عنها بلغته اللاتينية الجامدة التى لا تقبل التطويع إلا فى عسر عسير . وكان قاصراً أيضاً تمام القصور عن الوصول إلى تفهم التيارات البالغة التعقيد التى تتداخل فى تكوين العاطفة الدينية الشرقية والتى تفسر كل ذلك القلق والاضطراب اللذين مر بهما الإيمان خلال القرون الأولى من حياته .

وكان متشبعاً بالثقافة القانونية التى امتاز بها الفكر اللاتينى ، فنزع نزوعاً يكاد يكون غريزيًّا إلى تحديد الميتافيزيقا المسيحية فى إطار من القواعد الجامعة المانعة الثابتة ، وإلى تقنين المثل الأخلاقية الدينية تقنيناً حازماً متشدداً .

وتلك هى المرحلة التى طبعت المسيحية فى النهاية بذلك الطابع الذى أقامت عليه وعرفت به فى الغرب . ولكنه لم يكن هو الطابع الذى اتسمت به فى عهد الانتصار والذى بدأت تفقده حقيقة خلال القرن الخامس ، بتأثير الكنيسة الرومانية . لذلك نجد أنفسنا ، خلال القرن الرابع ، أمام دين لم يزل شرقيا بحتاً[1] .

ولعل القارئ يذكر أننا ، عندما حاولنا فى الفصول السابقة أن نتعرف على أحوال الشرق الدينية فى عهد عيسى والقديس بولس ، لاحظنا وجود مادة دينية ضخمة ، تكونت من عبادات عفا عليها الزمن أو ألغيت . ولاحظنا أن هذه المادة الدينية ، رغم خمولها الظاهرى ، كانت تعتمل فيها مبادئ حياة حول نواة للتبلور ، وأنها كانت تقع تحت تأثير نزعات مختلفة اجتمع لها فى مكان واحد

---

(١) ونحن لا نعنى بذلك أن تطور المسيحية ، تقنينا وشعائر ، لم يبدأ منذ ذلك الحين فى كنائس إيطاليا وأفريقيا وبلاد الجول ، ولكننا نقرر فقط أن هذه الكنائس – باستثناء كنيسة روما – لم يكن لها أثر كبير حتى عهد الانتصار ، وكانت جميع تيارات الحياة العقائدية تأتى إليها من الشرق .

الوضوح والشمول . وبعبارة أخرى : كانت هناك تطلعات دينية ، حية بالغة الحياة ، منتشرة فى الشرق ، يهيمن عليها التطلع إلى النجاة ، والإيمان بأن الإنسان لا يمكنه الوصول إلى هذه النجاة بمفرده بل يحتاج إلى وسيط إلهى ، ثم الاعتقاد بأن عليه بعد ذلك كسب الرعاية الإلهية بأسلوب حياة مناسب وبطقوس فعالة . وحاولت هذه التطلعات أن تجد وسيلة للتعبير عن نفسها باستخدام العبادات القديمة وبتوسيع أبعاد الأساطير المتوارثة .

وكانت تلك العبادات والأساطير إطارات ضيقة ، لا تقبل فى يسر كل ما أريد إدخاله فيها من حاجات روحية متزايدة لم يكن لها حساب من قبل . ثم اتضح بعد ذلك التشابه بين مختلف المشاغل الدينية والنظريات المتعلقة بها فى الكثير من العبادات ، مما حتم التفكير فى إنشاء نمط جديد منها يسعها جميعاً أو يفوقها ويغنى عنها . وكان البحث والتأمل كفيلين للمرء بأن يدرك فى سهولة أن « أسرار » إيزيس – أن تركنا جانباً ما يحيط بها من قصص دينية – تنطوى على عين الرصيد الدينى الذى نجده فى عبادات أدونيس أو أتيس . ولم يكن فى استطاعة كل إنسان أن يصل إلى ما وصل إليه الكاتب أبوليه من حلول : فقد كان ينتسب إلى ديانة بعد أخرى ويتعرف على جميع الأسرار دون تفرقة .

ووضعت التيارات التأليفية اللا شعورية هذه المسألة موضع البحث . ثم عادت إليها فى إدراك تام لجوانبها المختلفة ، خلال القرنين الثانى والثالث ، وحاولت أن تجد لها الحلول : فارتفعت كل ديانة من ديانات « الخلاص » بمعبودها إلى مصف « الإله الأعظم » الذى لا تعتبر الآلهة الأخرى إلى جانبه سوى مظاهر منه أو وظائف له ؛ إذ هو يطويها جميعاً فى ذاته الكبرى ، ولكن ذلك كان حلا ناقصاً غير كاف ، حيث ظل على قيد الوجود فى الواقع عدد وفير

من العبادات المنفصلة ، ثـم لأن عملية التأليف هذه كانت تترك مجالا واسعاً للخيال الفردى ، وتبقى بعد ذلك بعيدة كل البعد عن إدراك عامة الناس .

لهذا كله اتضحت ، خلال النصف الأخير من القرن الثالث ، الحاجة إلى تنسيق أوسع أبعاداً وأقوى دعامة .

والمسيحية ، فى الحقيقة ، تمثل أول المحاولات فى هذا السبيل ، وأسبقها إلى تحقيق النجاح : ذلك أن أصولها اليهودية أتاحت لها الاعتماد على فكرة التوحيد ، وصبغتها بصبغة التعصب العقائدى التى أفادتها كثيراً فى تلك العصور ، إذ أمنت لها شخصيتها المستقلة ؛ ولم تمنعها من تطويع العبادات الأخرى لصالحها ، ولكنها دفعتها إلى الاستيعاب السريع لها وصهرها فى وحدة منسجمة ، دون التلاشى بينها . ولا شك فى أنه قد ظهرت داخل جمهور المسيحيين ألوان من الخلاف فى الرأى وصلت أحياناً إلى درجة كبيرة من الخطورة حول مسائل جوهرية ، بل انتهت بعضها إلى التشيع وتكوين الفرق . ولكننا نرى فى سائر الحالات اتجاها عامًّا تتحد حوله أغلبية من المؤمنين ، وتنتهى إلى عزل الآراء المخالفة ويصمها بالبدعة ، بل يفيد منها إذ تتحدد معالمه ويجد حياة ونشاطاً فى مقاومته لها .

وقد ظن لفترة طويلة أن العالم تردد كثيراً بين الإيمان بالمسيح والإيمان بميثرا خلال تلك العصور التى ضربت فيها المسيحية بجذورها بين ربوع الإمبراطورية وتوصلت حقيقة إلى مفهوم – بل إلى مذهب مبدئى – للعقيدة الأرثوذكسية . ونعتقد أن ذلك نوع من المبالغة الطائشة فى بيان تأثير عبادة ميثرا التى ظلت آفاق التبشير بها أكثر ضيقاً وتخصصاً من آفاق المسيحية والتى لم تنتشر قط إلا بين مدارس صغيرة مشتتة مقصورة على الخاصة . ولم تكن تعتمد كالمسيحية على

روح المرأة ذات العاطفة الوثابة إذ اقتصرت فى مريديها على الرجال ؛ وكانت تفتقر – على الأخص – إلى كل العوامل التى يمكن أن تجعلَ منها ديناً عامًّا بمعنى الكلمة .

أما أعداء المسيحية الحقيقيون ، فيجب البحث عنهم فى غير ذلك من الأديان .

يجب البحث عنهم فى ديانتين ، شرقيتين مثل المسيحية ، نبعتا من نفس المشاغل الدينية العامة التى نبعت منها ، واستخدمتا عين المادة الدينية التى عرضنا لها فيما سبق ؛ ألاوهما : « الأفلاطونية الجديدة » ، و« المانوية » .

لقد نبعتا ، كما نبعت المسيحية ، عن الأزمة الدينية التى وصفناها ، وتكونتا فى الفترة بذاتها التى تكونت فيها المسيحية ، أى : خلال النصف الثانى من القرن الثالث . وبدت كل من الديانات الثلاث أول الأمر فى صورة مختلفة فى الشكل والمبدأ والطقوس ثم فى طرق اختيار وتنسيق العناصر المختلفة التى استخدمتها ولكنها تشابهت بعد ذلك فى صفاتها العامة .

فالأفلاطونية الجديدة قد احتفظت بمظهر الفلسفة التى تعتمد فى المجال العقلى – إذا سمح لنا بهذا التعبير – على تفكير أفلاطون بعد أن طوعته للنظريات السائدة فى هذا العصر ؛ كما كانت تعتمد فى مجال ما وراء الطبيعة على مذهب تعدد الآلهة الأولمبيين . ولكننا نلحظ لأول وهلة أن النظريات الفلسفية لديها لم تعد سوى وسيلة للتطويع ، تستخدمها فى ترجمة مذهب تعدد الآلهة هذا ، إلى رموز ، وفى إخضاعه لفكرة «التوحيد الوثنى» الشرقية ، أى لعبادة الشمس – التى نجدها بين أسس جميع ديانات الشرق الخاصة بالنجاة[1] – وتنتهى بذلك

(١) كان أفلوطين وبورفير أول أستاذين كبيرين من أساتذة هذه المدرسة وكانا يخشيان كل الخشية من =

إلى تحويل تعدد الآلهة إلى نوع من وحدة الوجود .

أما المانوية ، فكانت – على العكس من ذلك – تستند إلى « الثنائية » الكلدانية ، أى : إلى الأسطورة الأساسية التى تقول بالصراع بين النور والظلام ، بين الخير والشر ، بين الروح والمادة . وعقيدتها وحى من إلهام نبى ، هو مانى ، وليست نابعة من تأملات مدرسة فكرية معينة . وهى قد استعارت عناصرها من آفاق أوسع من تلك التى تطرقت إليها الأفلاطونية الجديدة ، بل المسيحية نفسها ؛ فإننا نلحظ فيها تأثيرات مختلفة من بلاد ما بين النهرين وفارس والشرق الأقصى ، إلى جانب تأثيرات « الغنوصية » التى تشكل دعامتها الكبرى .

(د)

وظهرت بين الديانات الثلاثة عداوة مستحكمة ، كما اتخذت كل منها بطبيعة الحال اتجاهات وروحاً تختلف عما نجده فى الأخريين .

ولكن ما أكثر أوجه التشابه بينها ! . .

فهى ديانات خرجت ، على حد سواء ، عن المفهوم القديم – القومى الضيق الأفق – للعبادات .

وهى تريد العالمية ؛ وتفسر الوجود والحياة بعلل متماثلة تقريباً ، أو – على الأقل – حسب منهج واحد .

= تعلق العامة بالخرافات والشياطين والجن والسحر . وكان ذلك سببا من أسباب عداء بورفير للمسيحية .

أما خلفاؤهما – ونخص بالذكر منهم جامبليك الذى توفى حوالى عام ٣٣٠ – فقد خصوا بالاهتمام فى تأملاتهم الفكرية : المسائل الدينية والدفاع عن الوثنية ، واعتبروا البحث الفلسفى بمعنى الكلمة مجالا ثانويا ، وأقاموا من أنفسهم انصارا للهيلينيستية ضد تعصب المسيحيين « البربرى » .

وهى تزعم انتزاع الإنسان من ظروف حياته الوضيعة لترشده إلى الخلاص الخالد فى الله .

ثم هى ، أساساً ، ديانات توحيد ، تريد من الإنسان أن يكتسب الخلود والسعادة بالخضوع لشعائر عبادية معينة ولقوانين أخلاقية صارمة .

وقد ظهر فى « الأفلاطونية الجديدة » – منذ البداية – نقص خطير بالنسبة إلى الدينين الآخرين : فهى لم تجد لها « مؤسساً » ، ولم تستطع أن ترجع عقيدتها إلى إرادة ظاهرة لله ، تجعل منها عقيدة أصيلة ، تنطلق بمفاهيمها إلى حيز الواقع الملموس – إن سمح لنا باستخدام التعبير – ولذلك بدت دائماً فى ثوب الدين المصطنع ، واحتفظت بمظاهر النظرية المجردة التى يصبغها كل شخص بصبغته الفكرية الخاصة .

ويختلف موقف المانوية تمام الاختلاف . فهى تعتمد على مانى [1] ، اعتماد المسيحية على عيسى .

لقد صور الفقهاء المسيحيون عامة « المانوية » على أنها بدعة مسيحية . وهذا القول بالغ الخطأ : فالمانوية ، فى عقيدتها وأسطورتها لم تتخذ ثوباً من المسيحية إلا لأسباب « ثانوية » عند اتصالها بأتباع هذا الدين وبأوساطه المختلفة ، فى سعيها إلى التبشير . ولم تكن الطاقة التأليفية للمانوية قد وصلت إلى غايتها عندما مات مؤسسها ؛ بيد أنها ظهرت منذ أول أمرها بمظهر الديانة المؤصلة . وإذا كان مانى قد اعتبر نفسه فى المجال الروحى من خلفاء عيسى وأدخل اسمه فى عداد رسل الله مع الكثيرين من الأنبياء السابقين ، فإنما كان يقصد عيسى المعروف

(١) ولد مانى – ويقال أيضا مانس وماتيكيا – فى بابل عام ٢١٥ أو عام ٢١٦ ، ومات ببلاد الفرس فيما بين عام ٢٧٥ وعام ٢٧٧

لأصحاب الغنوصية . ومانى فى الواقع لا يدين بشىء يذكر لانجيل الجليل : لقد بشر بدين للخلاص يعتمد على الزهد كما اعتمدت عليه المسيحية فى أول أمرها . ولكنه اتخذ فى مجال ما وراء الطبيعة طريقاً أبسط وأوضح وأكثر منطقاً من ذلك الذى سلكته المسيحية ، كما سار فى الميدان الأخلاقى على قوانين أكثر تشدداً وصرامة . ولقد وجه إليه المسيحيون المتعصبون تهماً كثيرة ، ولكنها لم تكن سوى تكرار – لا يستند إلى دعائم صحيحة – لنفس التهم المتهافتة التى وجهت من قبل إلى الجماعات المسيحية الصغيرة الأولى . وعلى أى حال ، فإن المانوية – بعد عهد من النجاح الخاطف السريع – دخلت فجأة فى طور من الانحدار ، بسبب المقاومة العنيفة التى لاقتها من الدولة الرومانية ، إذ رأت فيها تلك الدولة ضرباً من ضروب الفوضوية يفوق فى خطره خطر المسيحية ولوناً من ألوان « المونتانية » المبالغ فيها لا يناسب الرومان ولابد له أن يؤدى بأتباعه إلى التخلى عن واجباتهم كمواطنين وكأفراد مجتمع إنسانى بعد أن تسرب إليهم من بلاد فارس وهى العدوة اللدود للإمبراطورية الرومانية وكان ذلك موقف الإمبراطور ديوكليسيان عندما أصدر أحكامه الرهيبة (حوالى عام ٣٠٠) التى قررت ضد أصحاب المانوية أقسى العقوبات وأبانت عن الرغبة فى القضاء عليهم قضاء مبرماً . وشاركت الكنيسة مشاركة صريحة فى هذا العداء الذى لاقته المانوية ، إذ اعتبرتها ديناً منافساً يريد تجديد الغنوصية ، ويشكل بالنسبة إليها خطرا داهماً يزيد كثيراً عما عرفته من مخاطر خلال القرن الثانى .

وفى ذلك نجد السبب الحقيقى لفشل المانوية ، تلك الحركة الدينية المثيرة القوية فى حد ذاتها والتى أظهرت حيوية عجيبة برغم الاضطهادات العنيفة لها خلال قرون عديدة . ولا نشك فى أن عقيدتها – من وجهة نظر العقل المجرد –

لم تكن أقوى من الميتافيزيقا اللاهوتية المسيحية ؛ ولكنها كانت أقرب منها إلى البساطة . أما منهجها الأخلاق ، فكان يسمو عن قدرة البشر ولا يستطيع أن يغرى جماهير الناس ، إلا أن التوفيق الذى أصابته فى التمييز بين « الصفوة » وبين « المريدين » سمح لها فى هذا المجال بالكثير من الحلول الوسط . ويكفى للتدليل على ذلك بذكر نجاح فرق « الألبيجية » فى جنوب فرنسا خلال العصور الوسطى ؛ إذ يبدو أن « الألبيجية » لم تكن أصلا سوى تطويع مسيحى للمانوية . أما حظ المانوية من النجاح بين أوساط المفكرين ، فلا علينا لبيان خطره إلا أن نشير إلى اقتناع القديس أغوسطين بها وإعلانه رضاءه عنها لسنوات عديدة . بل إننا لنأسف أسفًا شديداً أن نرى هذا العالم الجليل – وهو الذى لم يلحظ شيئاً يؤاخذ عليه فى الاجتماعات المانوية خلال فترة انتمائه إلى الفرقة – نأسف أن نراه يتخاذل بعد ذلك ويضعف ، فيسمح بأن تجمع تحت اسمه وتنشر كل الادعاءات السقيمة المتهافتة المنفرة التى أشيعت بشأنها فى الأوساط المسيحية .

وفى العهد الذى بدأت المانوية فيه تقلق بال الكنيسة ، كانت هذه الأخيرة تمتاز عن الأولى بتنظيمها القوى وبوحدتها واتساقها فى إطار هيئة الأكليروس التى كانت تتمسك فى شدة بأهداب النظام الكنسى وتحافظ عليه ؛ فاستطاعت بفضل ذلك أن تتغلب فى سهولة على الجماعات المنافسة الصغيرة المشتتة التى اضطرت إلى العمل فى الخفاء . وكانت الكنيسة فى صراعها ضد زهد أتباع المانوية وتنكرهم للأمور الدنيوية ، تعتمد على نفس السلاح الفعال الذى تستخدمه فى وضع حد لكل نشاط صاخب يقوم أمامها ؛ ونعنى بذلك : حياة الأديرة . لذلك كانت للمانوية على تطور الرهبنة المسيحية آثار عميقة بكل

تأكيد ، وإن كان يصعب علينا اليوم تحديد مداها . وعلى أى حال ، فسوف تبقى النزعات المانوية موضوع نفور شديد بالنسبة إلى السلطات الكنسية ، وسوف تتخذ فى مناسبات عديدة سبباً أو سبيلا إلى اضطهادات رهيبة . وقد قتل الأسقف الأسبانى بريسيليان وراح ضحية لبعض هذه الاضطهادات عام ٣٨٥ .

ولم يكن هناك أى احتمال لأن يتحول العالم إلى الأفلاطونية الجديدة .

ولكن – على النقيض من ذلك – كانت احتمالات قوية أمام اعتناقه للمانوية ، خلال القرن الرابع .

وإذا كان قد تحول إلى المسيحية فى النهاية ، فالسبب فى ذلك يجب البحث عنه فى تقدم الكنيسة : تقدمها من حيث التنظيم ؛ ثم تقدمها فى مجال التبشير حيث طوعت مفاهيمه للحاجات الفعلية ، أى لحاجات العامة من الناس ؛ كما تفتحت آفاق لاهوتها لنظريات المفكرين . ويجب البحث عنه أيضاً فى المساندة التى لقيتها من سلطات الدولة التى اضطهدت المانوية ، وفى المعونة التى وجدتها من حياة الرهبنة ، تلك الحياة التى سمحت للمسيحيين النازعين إلى المانوية باتخاذ أسباب الزهد مع بقائهم فى رحابها بل تدعيمهم لكيانها .

وبعبارة أخرى : إذا كانت المسيحية قد تغلبت على الأفلاطونية الجديدة والمانوية ، وحلت محلها فى ذلك العصر ، فلأنها استطاعت أن « تعبر » فى صورة أبلغ مما قدر لها ، عن نفس ما نزعتا إليه من اتجاهات . ولم تلغ فى تعبيرها أى نزعة من النزعات ، بل شملتها جميعاً ، مع تنسيقها ، ومع تحديدها أيضاً – وعلى الأخص – بالدرجة التى تتجاوب فيها وحاجات مختلف طبقات الناس الباحثة عن غذائها الدينى . فقد خبرت العقبات والمحن خلال قرون ثلاث توالت

عليها ، فخرجت منها بقدرة تلقائية على تجنب القضايا المبالغ فيها والنظم التى تتجاوز مقدرة البشر بسبب صرامتها . . . لقد خرجت منها بتعقل الحياة . وكانت الحياة تفيض بين جوانبها وتدفعها فى تياراتها ؛ وكانت هى نفسها تتمثل الحياة فى المجال الروحى بمرونة بالغة يسهل علينا ملاحظاتها عندما نتأمل واقع الأحداث فى شىء من العناية .

وعلينا أن نشير هنا – من ناحية أخرى – إلى أن المسيحية لم تقض على الأفلاطونية الجديدة وعلى المانوية تمام القضاء ، بعد أن حلت محلها خلال القرن الرابع وتشربت بهما جزئيًا فى عقيدتها – بالنسبة إلى الأولى – وفى مفهومها الجمالى وتنظيمها – بالنسبة إلى الثانية .

وسوف تظل الديانتان على قيد الوجود إلى جانبها : فقد عاشت الأولى فى ثنايا المؤلفات الفلسفية ، التى بقيت زمناً طويلا معيناً لنظريات الميتافيزيقا الشرقية ، والتى أثرت تأثيراً بالغاً على الأفكار اللاهوتية فى الغرب خلال القرون الوسطى .

أما الثانية ، فقد تفرعت فى فرق مختلفة . انتشرت انتشاراً واسعاً ، وخرجت منها الكثير من البدع العنيفة التى أقلقت بال الكنيسة الكاثوليكية وأرقتها ، وكان لها – من جراء الاضطهادات التى نالتها – تأثير عميق على روح تلك الكنيسة وعلى إنشاءاتها .

خلاصة

الملامح العامة التى يمكن أن يخرج بها الباحث من هذه الدراسة – المسيحية ديانة شرقية فى جوهرها – العناصر المتباينة التى شيدت عليها فى الشرق – الاتجاه التأليفى المسيحى الأول : عقيدة الخلاص – العوامل التى ضمنت للمسيحية التفوق على الديانات المماثلة – انتشارها فى ربوع اليونان – نتائج ذلك : تسرب الميتافيزيقا الأغريقية إلى العقيدة – الاتجاه التأليفى المسيحى الثانى : إنشاء النظريات العقائدية – عمل مفكرى الإسكندرية – واقعية العقائد بالنسبة إلى الشرقيين – لماذا لايستطيع الغربيون أن يفهموا هذه العقائد .

* * *

سوف نحاول هنا أن نجمع ونلخص – من وجهة النظر التاريخية – ما ارتسم لدينا من ملامح عامة لتلك القرون الأربعة من الحياة الدينية التى صاحبنا تطوراتها وأمعنا النظر فى بعض جوانبها ، خلال فصول بحثنا هذا .

وأول ملاحظة نقدمها ونؤكدها ، هى : أن المسيحية ديانة شرقية فى أصولها وفى خصائصها الأساسية . . .

ولو بقيت على ماكانت عليه فى البدء ، لما قدر لها من النجاح ، فى غزو العالم الغربى ، حظ أكبر من حظ ديانة إيزيس المصرية ، أو الأم الكبرى سيبيل الفريجية ، أو أدونيس السورى ، أو ميثرا الفارسى ولعلها كانت تستطيع – فى أقصى درجات انتشارها – أن تغرى ، على غرار الديانات المذكورة ، بعض

الأفراد الذين تحملهم استعداداتهم الطبيعية إلى الاستجابة لنزعاتها الخاصة ، أو تدفعهم مقدرات الصدف المحضة إلى اعتناقها . لعلها كانت تستطيع – مثلها فى ذلك مثل التنظيمات الدينية التى أشرنا إليها – أن تسعى إلى إقامة أشتات من الكنائس الصغيرة ، وأن تبشر بدعوتها فى نطاق بعض الجماعات المحدودة من السالكين . ولم تكن لتطمح حتى إلى هذا القسط الضئيل من النجاح ، إلا بعد مرورها – فى الأوساط التأليفية لجماعات يهود-المهجر – بتلك المرحلة الانتقالية التى اعتاد الناس أن يرجعوا الفضل فيها إلى بولس والتى هى فى الحقيقة – كما فصلنا فى ذلك القول – من عمل كنيسة أنطاكيا الأولى السابقة على قيام الحوارى بدعوته . وهى – على الصورة التى رسمها لها عيسى والحواريون الاثنا عشر – لم تكن لتجد سبيلا إلى الحياة خارج الأوساط اليهودية الخالصة ، لأنها لم تكن لتعنى شيئاً إلا بالنسبة إليهم كاتجاه عقائدى ، بل لم تكن تشكل سوى تعبير خاص عن الفكرة اليهودية المتعلقة بالانتصار وحول مملكة الله . أما من ناحية تشكيلها لمجتمع دينى ، فلم تكن لتتعدى صورة الفرقة اليهودية التى تعيش على هامش السنن الأصيلة المتمثلة فى مجتمع معبد القدس الأكبر والمعابد الفلسطينية عامة .

فالمسيحية إذن ديانة أنشئت – على أساس يهودى – من عناصر متباينة كثيراً ، وإن جمع بين أشتاتها على حد سواء الأصل الشرقى:عناصر يونانية فى جوانب كثيرة منها ، ولكنها أيضاً عناصر من آسيا الصغرى وسوريا ومابين النهرين ومصر .

وبدت لنا المسيحية ، فى نهاية القرن الأول من تاريخها ، مشابهة لتلك « الأسرار » التأليفية التى أخرج لنا العالم الشرقى ألواناً عديدة منها تتجاوب مع

تطلعه الصوفى الملحّ إلى « الخلاص » وحياة الخلود بديار السعادة فيما وراء الحياة الدنيا بآلامها وهمومها الحقيرة .

واستند تفوقها على مثيلاتها من الديانات إلى عاملين أساسيين أصلها اليهودى الذى حفظها من اتخاذ الحلول الوسط السقيمة مع خرافات الأساطير الميثوليجية المنفرة للنفوس الرقيقة ؛ ثم الواقع الإنسانى لـ « السيد » فيها وتمجيده المحقق بشهادة الشهود ، مما ألبس ادعاءاتها ثوباً من اليقين العميق ومن الوضوح والدقة . وكانت ، بالإضافة إلى ذلك ، أغنى وأبسط من ديانات الخلاص الأخرى . وقد جنبها تعصبها الشديد – وتلك ميزة أخرى ترجع إلى أصولها اليهودية – جنبها التداخلات وألوان الامتزاج المختلفة التى تؤدى إلى الانحراف عن الجوهر الأول ، ولكنه لم يمنعها من اقتراض العناصر التى يمكنها تطويعها وهضمها فى يسر وبساطة ؛ فكان فى إمكانها أن تأخذ – وقد أخذت فعلا – ما بدا لها من الأفكار فى سائر المجالات دون أن تعطى من نفسها مقابل ذلك شيئاً يذكر .

ولكن المسيحية ، برغم كل ذلك ، ومهما بدا فيها من ابتكار وأصالة أو من طبع المذاهب الأخرى التى طوعتها بطابعها الخاص ، لم تكن بالديانة الفريدة من نوعها ، بل لم تكن سوى صدى لتطلعات عصر وبيئة حققا آمالها أيضاً فى غيرها من الديانات .

ونراها تستقر فى ربوع العالم الهيلينستى بفضل « أمة المهجر » اليهودية ، فستفيد كل الاستفادة من إمكانيات المعابد التبشيرية وتحول هذه الإمكانيات لصالحها . ولكنها بذلك أيضاً وجدت نفسها فجأة أمام الفكر الإغريقى فى مواجهة انعقدت عليها كل الآمال الخاصة بتطورها ومستقبل انتشارها :

كان لها مثلا ، دون ما ضرر عليها ، أن تبادر فى البدء إلى معارضة « الحكمة الدنيوية » – تلك الحكمة التى ليست سوى « حماقة أمام الله » – فتواجهها بـ « غنوصيتها » ، أى : بمعرفتها الإلهية المنزلة . بل كان من واجبها أن تصرح باحتقارها للفلسفة ، وألا تحيد قط عن هذا الموقف الحتمى لكل مذهب يدعو إلى التقوى ، حتى تؤكد أنها تسمو عن الحياة الدنيا بحيث لايلحق بها أو يضيرها أى تفكير إنسانى ، مهما بالغ أصحابه فى الاجتهاد . ولكننا نؤكد هنا القول بأنها ، لو كانت قد تمسكت بأهداب هذا الموقف تمام التمسك ، ولو لم تكن قد سمحت لحكماء العصر – الذين وفدوا إليها فى حماس صوفى – بأن يجلبوا معهم تقاليدهم الفكرية وأساليبهم الجدلية وتطلعاتهم العقائدية الجوهرية وحبهم الجم للنظريات الميتافيزيقية ، لما قدر لها أن تخرج عن نطاق الأوساط التى تقبلتها فى بداية الأمر ، ولعاشت عيشة دين للبائسين والبؤساء والمتحمسين الذين يبلغون فى تحمسهم حد الهوس ، ولتلاشت منذ عهد بعيد ولطواها النسيان ولم يعد لها ذكر إلا فى كتب العلماء الباحثين .

إلا أنه كان من حسن حظها أن نفس تشددها فى التعصب قد أدى إلى تجنبها عقد الخوف من مخاطر مهادنة الأديان الأخرى . فنراها مثلا منذ القرن الثانى ترحب بالفلاسفة الذين يئسوا من الفلسفة الوثنية والذين ظلوا برغم ذلك على فلسفتهم – دون إدراك منهم – وعلى صبوتهم العميقة المتأصلة إلى الميتافيزيقا ، فاعتبروا القضايا الأساسية من الغنوصية المسيحية موضوعات تأمل وتفكير نظرى ، واندفعوا فى هذا الاتجاه الذى لم يستطيعوا له مقاومة . وأرادوا لها أن تكون فلسفة ، فأصبحت فلسفة بفضلهم . . فلسفة للكمال تنطوى على خير ما جاء فى النظريات اللاهوتية والجمالية عند اليونان كما تضم الأفكار

الأساسية من نظرياتهم الخاصة بالكون . ولكن هذه العناصر المكتسبة الجديدة لم تؤد إلى إلغاء أى من العناصر الأخرى القديمة المستمدة من الديانات الشرقية ذات الأسرار ، تلك العناصر التى اندمجت فى المسيحية اندماجاً تامًّا بحيث بدت وكأنها جزء أصيل منها لايتجزأ ، بل ، على العكس من ذلك ، نرى فقهاً ذكيًّا مرناً – تلعب فيه الرموز والصور البيانية دور البراهين المنطقية – يحاول أن ينسق بين كل العناصر ، الجديد منها والقديم ؛ هذا على حين كان البسطاء من الناس يجدون غذاءهم فى النواحى العملية من العقيدة ، والحكماء تشرق فى نفوسهم الجوانب الروحية منها إشراقاً يزداد يوماً بعد يوم .

وهكذا نشأ حلم عيسى الخاص بحلول مملكة الله بين رحاب أمة بنى إسرائيل ، ثم مد فى آفاقه ، فأصبح « سرًّا » من أسرار الخلاص الإنسانى ، وتطور بعد ذلك إلى دين عظيم تتفاعل فيه كل تيارات الحياة الدينية الصوفية النابعة من الشرق وكل النظريات العقلية الوافدة من العالم اليونانى .

ولم يكن هذا العمل – الذى ساهم فيه مفكرو الإسكندرية بأكبر قسط وكان للفيلسوف أوريجين النصيب الأعظم فى إرساء قواعده – لم يكن بالأمر الهين السهل ، بل قامت فى سبيله عقبات عديدة وتردد أصحابه كثيراً بين حلول متعارضة ومشاكل شائكة . ولكن الإيمان الوسط المعتدل استطاع فى جميع الأحوال – وهو المسيطر تماماً على رمزية دينه – أن يتجنب المبالغات شيئاً فشيئاً ، وأن يقلل من التعارض بين النظريات ، ثم أن يدعم ويقوى من القضايا الأساسية التى يجد فيها إشباعاً لتطلعاته اللاهوتية . وثارت أزمات قاسية ، وبانت اختلافات مقلقة بين الآراء ، وقامت ألوان من الصراع العنيف الفاضح ، ولكن شيئاً من ذلك لم يستطع أن يعوق من انتشار المسيحية ، لأنها

أصبحت النواة التى تتبلور حولها كل حياة وكل صبوة دينية تمتاز بشىء من الخصوبة ، ثم لأنها انتظمت فى الكنيسة ، أى فى هيئة منظمة ذات قانون وحكومة .

وفى نهاية القرن الرابع ، لم تكن المسيحية قد دخلت بعد فى عهد كمال واستقرار الأرثوذكسية ، غير أنها – منذ ذلك الحين – كانت متمكنة تمام التمكن من مجموع العقائد ذات الشأن فيها ؛ كما كانت تعتمد على إطارات كنسية قوية ، وتسيطر فى واقع الأمور على سائر العالم الرومانى . والحقيقة أنها كانت تجنى – فى كل ما يتعلق بالعقيدة ذاتها – ثمار قرون ثلاثة من الجدل فى مختلف بلاد الشرق .

وكانت معتقداتها الأساسية التى عبر عنها فقهاؤها فى نصوص أثارت مناقشات مطولة وظلت دائماً مرنة وقابلة للتطور – كانت هذه المعتقدات تأتى إلى أذهان الشرقيين بمعان تختلف فى الوضوح والعمق باختلاف درجات الثقافة لديهم : معان تتجاوب مع أفكار أو عواطف ، ولكنها – على أى حال – معان « واقعية » . وقد سارت الأمور على هذا المنوال فى جميع المراحل التى مر بها تطورها . بل إن هذه الرقابة الدائمة التى تولتها عواطف وأفكار المؤمنين على العقائد كانت هى العامل الأول فى تحديد اتجاهات هذا التطور نفسه وإثبات نتائجه .

بيد أن المجموعة العقائدية المسيحية كانت قد نبعت فى بيئة معينة ومن أجل هذه البيئة . ولهذا كان لابد لها من أن تظل غامضة ، بالغة الغموض ، بالنسبة إلى رجال لم يهيئهم لتفهم هذه البيئة ما أنشئوا عليه من تكوين منطق وعاطفى وما أوتوه من استعدادات طبيعية ، وما درجوا عليه من تقاليد فكرية . وكان هذا

حال الغربيين بالنسبة إلى المسيحية ، وإن حظيت كنيستها لديهم بما نعرفه من نجاح لا مثيل له .

ولم يكن هؤلاء الغربيون بالذين خبروا كل مكتسبات الثقافة الشرقية ؛ كما لم يكونوا ليدركوا الفكر الهيليني إلا من خلال ترجمات تفتقر إلى الكمال والإنصاف . والأقلية القليلة منهم هم الذين استطاعوا باستيعاب اللغة اليونانية تماماً وبالإقامة سنين طويلة فى الشرق – أن يكتسبوا لوناً من العقلية الإغريقية . أما الأغلبية الغالبة فلم تكن – حتى بين أكثر الطوائف تدرجاً فى الثقافة – لتصل إلى أكثر من مفهوم مقارب بعض القرب لمفاهيم العقلية الشرقية ، بل يمكن الجزم بأن الأكثرية الساحقة من الناس لم تكن لتصل إلى شيء من هذا على الإطلاق ؛ فلغتهم نفسها – وكانت اللاتينية – لم تسعفها التعبيرات اللازمة لترجمة كل ما تنطوى عليه اليونانية من دقة وتدرج ورقة فى المعانى . ثم إن النصوص المترجمة – أو ، على الأصح المطوعة تطويعاً تقريبيًّا لمدركاتهم اللغوية – وصلت إليهم فى صورة قضايا جامدة خلعت عنها أثواب المناقشات التى أدت إلى تحديدها وإثباتها . فلم يكونوا ليفهموها إلا « جملة » ، ولم يكن لهم إلا أن يقبلوها « دفعة واحدة » دون ما محاولة لتفسيرها .

لكل هذا نستطيع القول – دون أن نتهم بالبحث عن المتناقضات أو السير وراء كل غريب من الآراء – بأن الغربيين لم يفهموا العقائد المسيحية فى العصور القديمة قط ، كما لم يصلوا إلى إدراكها فى العصور اللاحقة ؛ وأن الديانة التى أنشأوها على أساس منها ، باجتهادهم الخاص ، كانت ديانة مختلفة تمام الاختلاف فى روحها وجوهرها ، عن المسيحية الشرقية ؛ ديانة مختلفة نبعت قبل

كل شيء من رصيدهم الفكرى والروحى ، متمشية مع عواطفهم ونزعاتهم ، وإن صبت فى قوالب تعبيرية لا توافقها تمام الموافقة .

« وخلاصة : أن الغربيين لم يكونوا قط مسيحيين فى يوم من الأيام »[1] .

obeikandl.com

(١) سوف يدرس المؤلف فى كتب لاحقة « مسيحية القرون الوسطى » ثم « المسيحية الحديثة » شارحا فى تفصيل واف تطور المسيحية فى الغرب .

تعقيب

للإمام الأكبر عبد الحليم محمود

جلست السيدة حنة ، وعلى وجهها سمات الاهتمام والحزن ، ونظراتها معلقة بطائر يحنو على فرخه ويطعمه . وأخذ خيالها يسرح ، يسرح عبر هذه السنين التى تقضت من عمرها الذى لم تتخلله البهجة بالأولاد يسرحون ويمرحون ، ويملأون البيت حبًا ، وضجيجاً حبيباً ، ومودة وفرحة .

إنها حياة جدباء ، تلك التى لم تملأ جنباتها البهجة بالأولاد : على هذا النسق كان يدور خيالها وعيناها ممتدتان إلى الطائر يطعم فرخه فى حنان ومداعبة .

استمر خيالها يسير مع هواها ، واستمر شعورها بالرغبة فى الولد يقوى ويتركز ، وإذا بها فجأة تسيل دموعها ، وتتجه إلى الله ضارعة فى حرارة داعية فى شوق ولهفة ، أن يهب لها ولداً ، وقالت :

« اللهم لك على إن رزقتنى ولداً أن أتصدق به على بيت المقدس » .

يقول ابن اسحاق :

« كان السبب فى نذرها أنه أمسك عنها الولد حتى أسنت » واستجاب الله دعاءها ، فلما شعرت بالحمل ، اتجهت إلى الله فى شكر وفى عرفان ، تؤكد من جديد نذرها ، ويعبر القرآن عن ذلك بقوله :

(إذ قالت امرأة عمران رب إنى نذرت لك ما فى بطنى محرراً فتقبل منى إنك أنت السميع العليم).

وعمران الذى ذكرته الآية الكريمة، ليس بعمران أبى موسى، وبين موسى وعيسى، بون شاسع من الزمن.

أما قولها فى الآية الكريمة: «محرراً» فمعناه «معتقاً»، وهى تقصد بذلك أنه معتق من أن يكون عبداً للدنيا ليعبدك وحدك.

يقول الزجاج:

كان على أولادهم فرضاً أن يطيعوهم فى نذرهم، فكان الرجل ينذر فى ولده أن يكون خادماً فى متعبدهم[1].

لقد سعدت السيدة حنة بهذا الحمل فهى تفكر فى هذا الجنين فى سعادة، إنها تفكر فى صورته وتفكر فى تنشئته، وتفكر فى تربيته وثقافته كما تفكر فى بسماته، وفى مداعباته، وما كان خيالها يسرح مطلقاً فى جو هذا الجنين على أنه أنثى، وإنما كان يسرح باستمرار – فى جوه – على أنه ذكر، هاهو ذا قد أصبح شاباً ذكياً، فتياً يأخذ مكانته بين فقهاء المعبدوسدنته، بين المسيرين لدفة الأمور الدينية والموجهين لها، ثم ها هو ذا حبر من كبار الأحبار له الكلمة المسموعة... و... و...

وجاء أوان الوضع، وفوجئت السيدة حنة، مفاجأة لم تكن متوقعة. لقد كان المولود أنثى.

ارتبكت السيدة حنة لحظة من الزمن، وفكرت فى نذرها، وفكرت فى

(١) يقول القاضى أبو يعلى: والنذر فى مثل ما نذرت، صحيح فى شريعتنا، فإنه إذا نذر الإنسان أن ينشئ ولده الصغير على عبادة الله وطاعته، وأن يعلمه القرآن، والفقه وعلوم الدين: صح النذر.

المقادير وفى سرعة اتجهت إلى الله تعالى وكأنها تعتذر أو تستغفر قائلة .

(رب إنى وضعتها أنثى ، والله أعلم بما وضعت ، وليس الذكر كالأنثى ، وإنى سميتها مريم ، وإنى أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم[1]) .

أما مريم هذه التى يحرص المفسرون على بيان أنها ليست مريم أخت موسى ، فإن الله سبحانه أضفى عليها عنايته وشملها برعايته ، ويعبر سبحانه عن ذلك فيقول :

(فتقبلها ربها بقبول حسن ، وأنبتها نباتاً حسناً)[2] .

أما من ناحية كفالتها فقد تولى ذلك زكريا ، وكان لذلك قصة :

قال السدى :

انطلقت بها أمها فى خرقها ، وكانوا يقترعون على الذين يؤتون بهم ، فقال زكريا وهو نبيهم يومئذ :

« أنا أحقكم بها ، عندى أختها ، فأبوا ، وخرجوا إلى نهر الأردن ، فألقوا أقلامهم التى يكتبون بها ، فجرت الأقلام ، وثبت قلم زكريا ، فكفلها .

قال ابن عباس :

كانوا سبعة وعشرين رجلا ، فقالوا : نطرح أقلامنا ، فمن صعد قلمه مغالباً للجرية فهو أحق بها ، فصعد قلم زكريا ، فعلى هذا القول كانت غلبة زكريا بمصاعدة قلمه .

وعلى قول السدى : بوقوفه فى جريان الماء .

وقال مقاتل :

---

(١) آل عمران آية : ٣٦ .

(٢) آل عمران آية : ٣٧ .

كان يغلق عليها الباب ، ومعه المفتاح ، لا يأمن عليه أحداً ، وكانت إذا حاضت ، أخرجها إلى منزله تكون مع أختها أم يحيى ، فإذا طهرت ردها إلى بيت المقدس .

والأكثرون على أنه كفلها منذ كانت طفلة بالقرعة .ا هـ

وأخذت الطفلة تشب وتترعرع فى كفالة زكريا .

فلما بلغت السن التى تستطيع فيها الخدمة ، أخذت بتوجيه زكريا عليه السلام ، تعمل فى المعبد توفية لنذر أمها ، وتتعبد فيه ، إنها عاملة عابدة .

واتخذت مريم عليها السلام محراباً ، قال الأصمعى : والمحراب هاهنا الغرفة . والمحراب فى اللغة : الموقع العالى الشريف كما يقول الزجاج :

اتخذت مريم عليها السلام محراباً تعتكف فيه متعبدة متهجدة .

وكان زكريا عليه السلام ، يدخل عليها من آن لآخر محرابها ، رعاية لها ، وعناية بها وتفقداً لأحوالها ، فكان – على دهشة منه – يجد عندها رزقاً : ويعبر القرآن عن ذلك فيقول :

(كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقا .

قال يا مريم : أنى لك هذا ؟

قالت : هو من عند الله ، إن الله يرزق من يشاء بغير حساب)[1] .

---

(١) يقول صاحب محاسن التأويل : « فى الآية دليل على وقوع الكرامة لأولياء الله تعالى ، كما وجد ، عند خبيب بن عدى الانصارى رضى الله عنه ، استشهد بمكة ، قطف عنب . كما فى البخارى ، وفى الكتاب والسنة لهذا نظائر كثيرة .

ومن اللطائف هنا ما نقله الإمام الشعرانى فى (اليواقيت) عن العارف بالله أبى الحسن الشاذلى قدس سره أنه قال : إن مريم عليها السلام ، كان يتعرف إليها فى بدايتها بخرق العوائد بغير سبب تقوية لإيمانها وتكميلا ليقينها ، فكانت كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقاً . فلما قوى إيمانها ويقينها ردت إلى

السبب لعدم وقوفها معه ، فقيل لها : وهزى إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطبا جنيًّا » اهـ .

أما عن قصة خبيب وقطف العنب فقد رواها الإمام البخارى فى حديث صحيح جليل ، عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : بعث رسول الله ﷺ عشرة رهط سرية عينا ، وأمر عليهم عاصم بن ثابت الأنصارى ، جد عاصم بن عمر بن الخطاب فانطلقوا حتى إذا كانوا بالهدأة وهو بين عسفان ومكة ، ذكروا لحى من هزيل يقال لهم بنو لحيان فنفروا لهم قريبا من مائتى رجل كلهم رام ، فاقتصوا آثارهم حتى وجدوا مأكلهم تمرا تزودوه من المدينة فقالوا : هذا تمر يثرب فاقتصوا آثارهم ، فلما رآهم عاصم وأصحابه لجأوا إلى فدفد وأحاط بهم القوم فقالوا لهم انزلوا وأعطونا بأيديكم ولكم العهد والميثاق ولا نقتل منكم أحدا ، فقال عاصم بن ثابت أمير السرية ، أما أنا فو الله لا أنزل اليوم فى ذمة كافر ، اللهم أخبر عنا نبيك فرموهم بالنبل فقتلوا عاصما فى سبعة ، فنزل إليهم ثلاثة رهط بالعهد والميثاق منهم خبيب الأنصارى وابن دثنة ، ورجل آخر ، فلما استمكنوا منهم أطلقوا أوتار قسيهم فأوثقوهم فقال الرجل الثالث هذا أول الغدر ، والله لا أصحبكم إن فى هؤلاء لأسوة يريد القتلى فجردوه وعالجوه على أن يصحبهم ، فأبى فقتلوه فانطلقوا بخبيب وابن دثنة حتى باعوهما بمكة بعد موقعة بدر ، فابتاع خبيبا بنو الحارث بن عامر بن نوفل بن عبد مناف ، وكان خبيب هو الذى قتل الحارث بن عامر يوم بدر ، فلبث خبيب عندهم أسيرا فأخبرنى عبيد الله بن عياض ، أن بنت الحارث أخبرته أنهم حين اجتمعوا استعار منها موسى يستحد بها فأعارته . فأخذ ابنا لى وأنا غافلة حين أتاه قالت فوجدته مجلسه على فخذه والموسى بيده ففزعت فزعة عرفها خبيب فى وجهى . فقال : تخشين أن أقتله ، ما كنت لأفعل ذلك ، والله ما رأيت أسيرا قط خيرا من خبيب والله لقد وجدته يوما يأكل من قطف عنب فى يده وإنه لموثق فى الحديد وما بمكة من ثمر ، وكانت تقول إنه لرزق من الله ، رزقه خبيبا فلما خرجوا من الحرم ليقتلوه فى الحال ، قال لهم خبيب : ذرونى أركع ركعتين ، فتركوه فركع ركعتين ، ثم قال : لولا أن تظنوا أن ما بى جزع لطولتها ، اللهم أحصهم عددا :

ولست أبالى حين أقتل مسلما ... على أى شق كان لله مصرعى

وذلك فى ذات الإله وإن يشأ ... يبارك على أوصال شلو ممزع

فقتله ابن الحارث فكان خبيب هو أول من سن الركعتين لكل امرىء مسلم ، قتل صبرا ، فاستجاب الله لعاصم بن ثابت يوم اصيب ، فأخبر النبى ﷺ أصحابه خبرهم وما أصيبوا ، وبعث ناس من كفار قريش إلى عاصم حين حدثوا أنه قتل ليؤتوا بشىء منه يعرف ، وكان قد قتل رجلا من عظمائهم يوم بدر فبعث على عاصم مثل الظلة من الدبر فحمته من رسولهم فلم يقدروا على أن يقطع من لحمه شيئا » فتح البارى بشرح صحيح الإمام البخارى ، جـ ٦ ، ص ١٢٤ ، ١٢٥ .

وتزكت مريم عليها السلام بالعبادة ، وصفت نفسها ، ورق شعورها ، فأصبحت من الصفاء بحيث ترى الملائكة .

ورؤية الملائكة ومخاطبتهم أمر أقره القرآن الكريم ، إن الله سبحانه وتعالى يقول :

(إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا : تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولاتحزنوا وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون ، نحن أولياؤكم فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ولكم فيها ما تشتهى أنفسكم ولكم فيها ما تدعون ، نزلا من غفور رحيم)[1]

ولقد كان رسول الله ﷺ ، يرى الملائكة ، ويتحدث معهم ، ولايراهم من بجواره .

والإمام الغزالى – عن تجربة – يقول :

« إن السالكين فى ابتداء الطريق حينما تصفو نفوسهم ، وتتزكى يرون الملائكة »[2] .

تزكت مريم ، وبدأت ترى الملائكة ، وبدأت الملائكة تتحدث إليها وتسدى إليها النصيحة وتوجهها إلى طريق الحق ، وطريق الطاعة ، بقوله سبحانه :

(وإذ قالت الملائكة يا مريم : إن الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين)[3] .

---

(١) فصلت : ٣٠ – ٣٢ .

(٢) انظر طبعتنا للمنقذ من الضلال .

(٣) آل عمران آية : ٤٢ .

قال ابن عباس والحسن وابن جريج :

اصطفاها على عالمى زمانها . قال ابن الأنبارى :

وهذا قول الأكثرين :

وبعد أن أثنت عليها الملائكة : هذا الثناء الجميل ، قالت :

(يا مريم اقنتى لربك واسجدى واركعى مع الراكعين)[1] . ثم يقول الله سبحانه وتعالى لنبيه وحبيبه وصفيه ومصطفاه :

(ذلك من أنباء الغيب نوحيه اليك ، وماكنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم ، وماكنت لديهم إذ يختصمون)[2] .

وتعود الملائكة إلى مريم تتحدث إليها ، ولم تكن فى هذه المرة موجهة أو آمرة ، وإنما تزف إليها بشرى مذهلة :

(يا مريم ، إن الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى بن مريم) .

يقول صاحب زاد المسير :

« وفى المراد بالكلمة ها هنا ثلاثة أقوال ، أحدها :

أنه قول الله له : « كن » فكان ، قاله ابن عباس ، وقتادة .

والثانى ، إنها بشارة الملائكة مريم بعيسى ، حكاه أبو سليمان .

والثالث : أن الكلمة اسم لعيسى ، وسمى كلمة ، لأنه كان عن الكلمة .

وقال القاضي أبو يعلى :

لأنه يهتدى به ، كما يهتدى بالكلمة من الله تعالى » .

---

(١) آل عمران آية : ٤٣ .

(٢) آل عمران آية : ٤٤ .

ثم تحدثت الملائكة إلى مريم عن صفة هذا الذى بشرتها به فقالت عنه :

(وجيهاً فى الدنيا والآخرة ، ومن المقربين ، ويكلم الناس فى المهد وكهلا ومن الصالحين)[1] .

فوجئت مريم بذلك فقالت فى تعجب واستفهام :

(قالت أنى يكون لى ولد ولم يمسسنى بشر) .

وكانت إجابة جبريل عليه السلام لها حاسمة ، واضحة :

(قال : كذلك الله يخلق ما يشاء ، إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون) .

واستمرت الملائكة فى ذكر بركات الله عليه فقالت :

(ويعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل ، ورسولا إلى بنى إسرائيل : أنى قد جئتكم بآية من ربكم أنى أخلق لكم من الطين كهيئة الطير ، فأنفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله ، وأبرئ الأكمه والأبرص ، وأحيى الموتى بإذن الله ، وأنبئكم بما تأكلون وماتدخرون فى بيوتكم ، إن فى ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين .

ومصدقاً لما بين يدى من التوراة ، ولأحل لكم بعض الذى حرم عليكم وجئتكم بآية من ربكم ، فاتقوا الله وأطيعون ، إن الله ربى وربكم فاعبدوه ، هذا صراط مستقيم)[2] .

وإذا تأملنا قليلا فى النص الإلهى وجدنا أن عيسى عليه السلام يقول : إنه يفعل ما يفعل بإذن الله ، ومعنى ذلك أنه ليس له من نفسه القدرة على

---

(١) آل عمران من الآية ٤٥ ، ٤٦ .

(٢) آل عمران آية : ٤٨ – ٥١ .

الخلق ، أو الإبراء ، وإنما ذلك كله « بإذن الله » .

ويقول :

إنه رسول إلى بنى إسرائيل .

وإنه مصدق لما بين يديه من التوراة .

ويختتم بقوله :

(إن الله ربى وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم) .

ونعود إلى مريم عليها السلام من جديد .

لقد كنا مع مريم ، وعيسى ، عليهما السلام ، من خلال سورة آل عمران ، والآن نصاحبهما من خلال سورة مريم التى ذكرت بعض تفاصيل لم تكن فيما مضى .

يقول الله سبحانه وتعالى :

(واذكر فى الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها مكاناً شرقيًا . فاتخذت من دونهم حجاباً فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشراً سويًا . قالت إنى أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيًا . قال إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاماً زكيًا . قالت أنى يكون لى غلام ولم يمسسنى بشر ولم أك بغيًا . قال كذلك قال ربك هو علىّ هين ولنجعله آية للناس ورحمة منا وكان أمراً مقضيًا . فحملته فانتبذت به مكاناً قصيًا . فأجاءها المخاض إلى جذع النخلة ، قالت يا ليتنى مت قبل هذا ، وكنت نسياً منسيًا . فناداها من تحتها ألا تحزنى قد جعل ربك تحتك سريًا . وهزّى إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطباً جنيًا . فكلى واشربى وقرّى عيناً فإما ترينّ من البشر أحداً فقولى إنى نذرت للرحمن صوماً فلن أكلم اليوم إنسيًا . فأتت به قومها تحمله قالوا يا مريم لقد جئت شيئاً فريًا . يا أخت هارون ما كان أبوك امرأ

سوء وما كانت أمك بغيًّا . فأشارت إليه قالوا : كيف نكلم من كان فى المهد صبيًّا . قال إنى عبد الله آتانى الكتاب ، وجعلنى نبيًّا . وجعلنى مباركاً أين ما كنت وأوصانى بالصلاة والزكاة مادمت حيًّا . وبرًّا بوالدتى ولم يجعلنى جباراً شقيًّا . والسلام علىّ يوم ولدت ويوم أموتُ ويوم أبعث حيًّا . ذلك عيسى بن مريم قول الحق الذى فيه يمترون ، ما كان لله أن يتخذ من ولد سبحانه ، إذا قضى أمراً فإنما يقول له كـن فيكون . وإن الله ربى وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم)[1]

أرأيت إلى هذا التكريم الذى أحاط الإسلام به مريم عليها السلام ، وعيسى عليه السلام ؟

إنهما فى التكريم السامى الذى أنزل الله فيه المصطفين من عباده المقربين .

وبينما يفترى اليهود على مريم افتراء نزهها الله عنه ، وبينما يرميها قتلة الأنبياء بالفاحشة ، ويتهمونها بالزنى ، إذا بالقرآن ، وبالجو الإسلامى كله ، قديمه وحديثه ، يعتبرها قديسة صديقة .

وبينما ينكر اليهود على عيسى ، عليه السلام ، نبوته ، ويرمونه بالكذب . إذا بالإسلام يعترف بنبوته ، وبأنه عبد الله ورسوله ، وبأنه مبارك ، وبأنه وجيه فى الدنيا والآخرة .

وبينما ينكر بعض مؤرخى الأديان ، مجرد وجود المسيح عليه السلام إذ لم تثبت لديهم الأدلة التاريخية على وجوده ، وعللوا المسيح والمسيحية ، بأنهما من اختراع القديس بولس ، وأن المسيح ليس إلا أسطورة لم يقع لها وجود إلا فى

---

(١) سورة مريم آية : ١٦ – ٣٦ .

خيال القديس بولس ، إذا بالإسلام يوجب على أتباعه ، وجوباً حتميًّا الإيمان بعيسى عليه السلام ، نبيًّا ، ورسولا ، ومباركاً ووجيهاً فى الدنيا والآخرة .

عيسى ؟

إنه جزء من إيماننا نحن المسلمين : نبى ، معصوم ، مبرأ من المعصية وأمه صديقة ، اصطفاها الله وطهرها ، واصطفاها على نساء بنى إسرائيل .

عبد الحليم محمود

obeikandl.com